۱۶۵۸۲

مجله	حضارة الاسلام
تاریخ نشر	شوال ۱۴۰۰
شماره	۸-۹-۱۰ سال ۲۱
شماره مسلسل	
محل نشر	دمشق
زبان	عربی
نویسنده	صفدار یالجن
تعداد صفحات	۵۸ - ۶۴
موضوع سرفصلها	دور التربیة الاخلاقیة فی بناء الفرد
کیفیت	
ملاحظات	

دور التربية الأخلاقية الإسلامية
في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية

للدكتور مقداد يالجن

اما فيما يتعلق بالبناء الاجتماعي فان التربية الاخلاقية تقوم بثلاثة ادوار مهمة :

فالمهمة الاولى اقامة مجتمع قوي البنيان مترابط الاطراف المستقر الهادىء يسود بين افراده المودة والرحمة والعدالة ، ثم لا يكون فيهم صراعات وتناقضات ويمكن ان نعبر عن هذا المجتمع الذي تبنيه التربية الاخلاقية بانه مجتمع خير ، وذلك عن طريق تكوين افراد اخيار ، لانه عندما يسعى كل فرد لتحقيق الخير لغيره كما يسعى لنفسه ويحب غيره كما يحب نفسه ويكف شره عن غيره كما يكف شره عن نفسه فان المجتمع عندئذ يتحول لا محالة الى مجتمع خير ولكن لا يمكن تحقيق ذلك الا بالتربية الاخلاقية السليمة اما اذا اهملت التربية الاخلاقية فيتحول المجتمع عندئذ الى مجتمع فاسد ، مجتمع الاشرار الذي لا امان ولا اطمئنان على النفس والمال والعرض وكل يسعى الى مصلحته الخاصة ولو كان على حساب مصلحة الآخرين او مصلحة الامة برمتها ومن ثم يزول كل التعاطف الانساني من التعاون والمحبة والمودة والرحمة ثم تكون عاقبته الخراب والخسران والهلاك ، يتكلم هنا الدكتور غوستاف لوبون مشيرا الى اهمية التربية الاخلاقية في رقي الامة وبناء المجتمع وكيف يؤدي اهمال هذه التربية الى انحلال هذا البناء ويقول : « تعليم الاخلاق من مسائل التربية الاساسية ... ومستوى الامة الخلقي ... هو الذي يعين مكانها في سلم الحضارة كما يعين قوتها فاذا ما انحلت اخلاقها انحلت عرا بنائها الاجتماعي »(١) .

ثم ان المجتمع الذي تبنيه التربية الاخلاقية ليس مجتمعا اخلاقيا فحسب بل مجتمع تقدمي ايضا ، فيتكلم مثلا جون ديوي عن دور التربية الاخلاقية في بناء مجتمع متقدم ويقول : « ان الاهتمام برفاهية الجماعة وهو اهتمام فكري

(١) روح التربية ص ٢٣٧ ، دكتور غوستاف لوبون .

وعملي كما هو عاطفي ايضا — اعني اهتمام بادراك كل ما ينهض بالنظام الاجتماعي وبالتقدم وبكل ما يساعد على وضع هذه المبادىء موضع التنفيذ — انما هو السعادة الاخلاقية القصوى التي يجب علينا ان نرد اليها جميع الغايات الاخلاقية المدرسية ، اذا كان لا بد لها من ان تزود بنفحة من الحياة الاخلاقية »(٢) كما يبين ان اهمال التربية الاخلاقية يؤخر المجتمع ويقوض اركانه ومن هنا يبين ان التربية الاخلاقية اكثر اهمية من التربية العقلية فيقول « اذا كان النقص الاخلاقي لا يساوي النقص العقلي جسامة وخطورة ، فالطفل يولد لديه الرغبة الطبيعية في ان ينتج وان يعمل ، او بمعنى آخر ولد مطبوعا على ان يقدم لنا خدماته وعندما يهمل استخدام هذا الميل وعندما تصبح الظروف وقد تهيأت لتحل محله هناك دوافع اخرى فان رد الفعل ضد الروح الاجتماعي يصبح اقوى مما نتصور »(٣) ولهذا كله فقد اكد المؤتمر الانجليزي للتحقيق الدولي في التربية الادبية الذي عقد في انجلترا عام ١٩٠٧ والذي اشترك فيه اكثر من سبعمائة من مشاهير كبار رجال العلم والادب والفلسفة والسياسة وبعد ان درسوا التقارير المقدمة من الدول المختلفة اكدوا اهمية التربية الاخلاقية في حياة الامة وضرورتها فيها »(٤) .

بل اكثر من بناء مجتمع متقدم فان للتربية الاخلاقية دورا اهم من ذلك وهو بناء مجتمع سعيد ، فانه مما لا شك فيه ان المجتمع لا يمكن ان يسعد الا اذا كان خير ، لان السعادة تاتي الى المجتمع نتيجة سيادة الخير فيه وزوال الشر عنه ولا يستطيع ان يقوم بهذا الدور غير التربية الاخلاقية لجميع افراد المجتمع حتى يصبحوا كلهم اخيارا . ويلقي المربي المشهور بستالوزي مهمة هذا الدور على عاتق التربية الاخلاقية في المنزل لانها الاساس العام فيقول هنا « اني وجدت التربية المنزلية هي الاساس القوي الذي يصح ان يعتمد عليه في إسعاد الشعوب فان لها من الاثر في قلوب الاطفال ما ليس لغيرها من انواع التربية وتاهيل التربية سداها ولحمتها الاخلاص والثقة والحب الصحيح المتبادل بين الطفل وابويه »(٥) وقال مارتن لوثر « ليست سعادة البلاد بوفرة ايرادها ولا بقوة حصونها ولا بجمال مبانيها وانما سعادتها بعدد المهذبين من ابنائها وبعدد الرجال ذوي التربية والاخلاق فيها »(٦) .

(٢) المبادىء الاخلاقية في التربية ص ٢٢ ، جون ديوي .
(٣) المرجع السابق ص ٢٤ .
(٤) التربية الاخلاقية ص ٢٠٢ — ٢٠٩ ، أبادير حكيم .
(٥) تاريخ التربية ص ٢٠٩ مصطفى امين .
(٦) تقويم الاخلاق ص ٢٩ علي فكري .

عرضنا وبايجاز شديد وجهة نظر المفكرين والمربين بصفة عامة في دور التربية الاخلاقية في بناء مجتمع متقدم .

اما فيما يتعلق بأثر التربية الاخلاقية على بناء المجتمع في نظر الاسلام ،

فان اهم خاصية يمتاز بها المجتمع الذي يريد الاسلام بناءه هي خير مجتمع او خير أمة على حد تعبير الاسلام تظهر بين المجتمعات والامم وتصبح خير مجتمع مثالي وخير امة مثالية وتكون قدوة خيرة ولهذا قال تعالى : « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(٧) .

لكن ما اهم خصائص هذا المجتمع وما دور التربية الاخلاقية في بنائه على ذلك النحو الخير ، ان خصائص هذا المجتمع الخير الذي اراد الاسلام بناءه عن طريق التربية الاخلاقية هي نفس خصائص ذلك الفرد الخير الذي اراد الاسلام بناءه الاخلاقي والذي يتكون من امثاله المجتمع كله ، فالفرد يمثل المجتمع في خصائصه كما ان المجتمع يمثل افراده في اخلاقهم .

اذن ما دامت نوعية هذا المجتمع الخير هي من نوعية الافراد الخيرين الذين يشكلون المجتمع عن طريق تكوينهم فاننا نستطيع تحديد خواص هذا المجتمع من خلال خواص افراده .

وخواص افراد هذا المجتمع الاسلامي كما حددناها سابقا تتلخص فيما يلي :

اولا : ان هذا المجتمع تسوده روح الخير بحيث يسعى لخير الجميع ويأمر بالمعروف ويحارب الشرور والمنكرات « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون »(٨) .

ثانيا : تسود هذا المجتمع روح الاخوة الانسانية لا فرق ولا تفريق لا في المعاملة ولا في الحكم والقضاء بين غني وفقير وبين أسود وابيض وبين حاكم ومحكوم كلهم سواسية في الانسانية وفي العبودية لله الواحد الاحد . فالافضلية الوحيدة لمن هو اتقى واصلح من حيث التقدير والاحترام وذلك للتشجيع على التقوى والفضيلة عن طريق تربية اجتماعية اخلاقية غير مباشرة « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله

(٧) سورة آل عمران ١١٠ .
(٨) سورة آل عمران ١٠٤ .

اتقاكم »(٩) « لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم »(١٠) .

ثالثا : تسود هذا المجتمع الوحدة والقوة ، الوحدة في داخل الافراد بين ميولهم والوحدة بين الافراد لانهم يؤمنون بالله واحد ويتجهون اليه كلية ثم يسيرون في اتجاه واحد وفي طريق واحد : « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا . وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »(١١) .

رابعا : يسود هذا المجتمع الوعي الكامل بوحدته من حيث ترابط المصالح المادية والمعنوية والاجتماعية والانسانية لدرجة ان كل فرد فيه ينظر الى انه عضو متصل بجسم المجتمع ، وان المجتمع ينظر الى كل افراده على انه عضو متصل بجسمه ومن ثم ينظر الفرد الى ان حياته مرهونة بحياة الجماعة وان المجتمع ينظر الى ان حياته مرهونة بدوام حياة افراده ولهذا فقد عبر الرسول تعبيرا دقيقا عن هذه الحقيقة عندما شبه في حديث سابق المجتمع بالجسم الواحد او بالرجل الواحد .

خامسا : تسود هذا المجتمع روح الخضوع للنظام كما تسود افراده روح التعلق بالمجتمع وانما تسوده هذه الروح ، لانه يؤمن بأن نظامه وقوانينه ليست قوانين وضعها افراد لمجرد تحقيق مصلحة اجتماعية ، بل اكثر من هذا ان هذا النظام اخلاقي يجب احترامه والخضوع له ولانه نظام الهي يحقق للانسانية انسانيتها .

وتسود ايضا كل فرد من افراد هذا المجتمع روح التعلق بالجماعة وعدم القيام باي عمل من شانه ان يضر هذا المجتمع ايا كان لون هذا الضرر او شكله ، وانه يؤثر مصلحة المجتمع على مصلحته الخاصة ، ويضع نفسه او ماله من أجله ان اقتضى الامر الضرورة « والذين تبؤوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم

(٩) سورة الحجرات ١٣ .
(١٠) سورة الحجرات ١١ .
(١١) سورة آل عمران ١٠٢ — ١٠٣ .

المفلحون » (١٢) « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » (١٤) .

ولكن ما الوسيلة لبناء المجتمع على هذا النحو وليصل الى هذه الدرجة؟ انه ليست هناك وسيلة لهذا الا وسيلة واحدة في نظري وهي بناء كل فرد من افراد المجتمع بالتربية الاخلاقية على النحو الذي بينته عند بناء الفرد ، لكن كيف نستطيع ان نبني كل فرد في المجتمع على هذا النحو ؟ لهذا يتعلق بوضع منهج خاص لتعليم التربية الأخلاقية في المجتمع وقد وضعت لذلك منهجا في الباب الاخير وخاصة في الخاتمة . في كتابي فلسفة التربية الإخلاقية الاسلامية .

الحضارة الاسلامية ودور التربية الاخلاقية فيها

وفقا لوجهة نظر الاسلام في بناء الفرد والمجتمع بناء اخلاقيا على النحو السابق ووفقا لما نرى ان الناس يصيغون حضارتهم بالخصائص التي تربوا بها فرديا واجتماعيا، فان اهم خاصية للحضارة الاسلامية تكون حضارة اخلاقية في طابعها العام وفي خاصيتها الاساسية . وذلك بالمفهوم الاخلاقي الذي جاء به الاسلام وبالغاية الاخلاقية التي جاء الاسلام من اجل تحقيقها ، كما ورد عن الرسول « انما بعثت لاتمم صالح الاخلاق » (١٥) .

وبذلك تتميز الحضارة الاسلامية عن الحضارات الشرقية والغربية اليوم لانها تستلهم خصائصها من نور يوقد من شجرة الهية لا مثيل لشجرتها فيما زرعته يد البشر في الشرق والغرب حتى الآن .

ولنبحث الآن عن حقيقة هذه الحضارة وعناصرها وخاصيتها المتميزة عن الحضارات الاخرى . ثم عن دور التربية الاخلاقية في بناء هذه الحضارة .

يمكن ان نقول مبدئيا ان اهم ميزة للحضارة في نظر الاسلام هي تقدم المجتمع من الناحية المادية والمعنوية في جميع مناحي الحياة الانسانية بروح خيرة ونحو غاية خيرة .

(١٢) سورة الحشر ٩ .
(١٤) سورة الانسان ٩ .
(١٥) مسند الامام احمد ٢/٣٨١ .

ذلك ان اي تقدم في أي ناحية ، لا يدخل في الحضارة الاسلامية ما لم يتم بروح خيرة ولتحقيق غاية خيرة ، ولو كان في التقدم الروحي ، فلو ان انسانا يقضي ليله ونهاره في عبادة متواصلة ولم يكن مخلصا في عبادته بأن كان في ذلك مرائيا او منافقا فانه لا يعد متقدما روحيا ، بل لا يعد عملا روحيا اطلاقا . وكذلك لو انه صنع اعقد الالات وطاف بها الافلاك لا يعد هذا تقدما في نظر الحضارة الاسلامية ما لم يفعل ذلك بروح خيرة او لغاية خيرة ، اذن من ميزة الحضارة الاسلامية ان يتم التقدم والتحضر بروح خيرة اذ التقدم بغير هذه الروح يؤدي في النهاية الى انهيار الحضارة .

والميزة الثانية استخدام الروح الخيرة في دفع عجلة التقدم في الميادين المختلفة ، لان القوة الروحية الخيرة طاقة جبارة فاذا دخلت في النفوس ورسخت فيها تحولت الى طاقة محركة تدفع عملية التقدم في جميع مناحيها بسرعة ، لكن لا يمكن تكوين هذه الروح الخيرة في النفوس الا بالتربية الاخلاقية على النحو الذي حددناه عند تحديدها وتحديد هدفها الا ببناء الافراد والمجتمع بالتربية الاخلاقية على النحو الذي بينته عند الكلام عن بناء الفرد والمجتمع . ثم انه اذا تكونت هذه الروح في نفوس افراد المجتمع تظهر مظاهرها في الحضارة وتجعل الناس يشكون الحضارة بصيغتها ، ويوجهونها الى حيث تتجه هذه الروح ومن ثم تكون هذه الروح هي المتحكمة في سير الحضارة وجميع مظاهرها . وعندئذ يصبح الافراد الذين يحملون هذه الروح سادة الحضارة لا عبيدها ثم لا يتحركون بعجلاتها دون ان يدروا اين تتحرك بهم تلك العجلات واين تنتهي بهم تلك المسيرة ، بل انما تتحرك عجلات الحضارة بتحريكهم على بصيرة الى غاية محدودة تنتهي بهم المسيرة مسيرة الحضارة . وبناء على وجهة النظر الاسلامية في وجوب سيادة الروح الاخلاقية في بنام الحضارة وتقدمها ، يجب الا يكون التقدم من اجل التفاخر والتكبر ، ولا من اجل العدوان والتسلط او من اجل الانغماس في الحياة المادية او من اجل استغلال مجتمع متقدم مجتمعا متاخرا او ضعيفا، وانما يجب ان يكون من اجل رفع مستوى الانسانية والتكامل الانساني . ثم من اجل تعميم الخير على البشرية ، وبذلك تكون الحضارة اداة السعادة لا اداة الشقاوة كما كانت اليه الحضارة الغربية وكما يقرر ذلك مقيمو الحضارة الغربية من الغربيين(١) ، ولهذا كله نجد الاسلام يشجع على التقدم الحضاري في مختلف مناحية في ضوء تلك الروح الخيرة وبها .

ولننظر الآن نظرة تحليلية الى اهم مظاهر الحضارة التي اراد الاسلام

(١٦) فلسفة الحضارة ص ٣٣ الرت اشفيتسر ، التربية لعالم حائر ص ٤١ سيرونشر دنفيستون

تكوينها ومدى تسرب تلك الروح الاخلاقية فيهما وصبغها بصبغتها ودفعها بدوافعها مدعما ذلك بالنصوص الاسلامية حتى لا نتهم باننا نقرر بدون دليل .

واول مظهر اخلاقي يتمثل في تلك الروح الخيرية التي تكونها التربية الاخلاقية في افراد المجتمع الذين تقوم على اكتافهم تلك الحضارة الاسلامية ، اذ ان تلك الروح تدفعهم اول ما تدفعهم عندئذ الى ان يكفوا شرهم عن غيرهم ، ثم تدفعهم ايضا الى الاسراع الى تحقيق الخيرات لغيرهم والتسابق في ذلك . « اولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون(١٧) » ، وذلك وفقا لقوله تعالى « فاستبقوا الخيرات(١٨) » .

وهم يسارعون ويتسابقون ويتنافسون في عمل الخيرات لا للتفاخر ولا للتناحر ولا للاستعلاء ولا للبغضاء ، وانما من اجل نيل رضوان الله والدخول في السعادة الابدية في الجنة « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون(١٩) » ، لانهم « يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات واولئك من الصالحين(٢٠) » لكن هذا التسابق والتنافس ليس فيهما شيء من الانانية البغيضة ، بل فيهما تعاون في الخير « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان(٢١) » ثم تدفعهم تلك الروح ايضا الى دراسة وسائل تحقيق الخير وتعليمها الناس وارشادهم اليها فقال الرسول « ان الملائكة واهل السماء والارض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير(٢٢) » كما قال « من دل على خير فله مثل اجر فاعله(٢٣) » وقال ايضا « من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل اجور من تبعه لا ينقص ذلك من اجورهم شيئا(٢٤) » كما تدفعهم تلك الروح الخيرة الى ابتكار طرق ووسائل تحقيق المشروعات الخيرة فقال الرسول « من سن في الاسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل اجر من عمل بها ولا ينقص من اجورهم شيء ومن سن في الاسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من اوزارهم شيء(٢٥) » وقال ايضا « ما من رجل يتحش بلسانه حقا فيعمل به بعده الا جرى عليه اجره الى يوم القيامة ثم وفاه الله ثوابه يوم القيامة(٢٦) » .

---

(١٧) سورة المؤمنون ٦١ .
(١٨) سورة البقرة ١٤٨ .
(١٩) سورة المطففين ٢٦ .
(٢٠) سورة آل عمران ١١٤ .
(٢١) سورة المائدة ٢ .
(٢٢) التاج ٦٤/١ .
(٢٣) صحيح مسلم ١٥٠٦/٣ كتاب الايمان .
(٢٤) المرجع السابق ٢٠٦٥/٤ .
(٢٥) المرجع السابق ٢٠٥٩/٤ كتاب العلم .
(٢٦) منتخب كنز العمال في هامش مسند الامام احمد ٢٤٥/٢ .